الفصل الرابع والعشرون

تطوير الإسلام

ما قدمناه من وسائل أوروبا فى مواجهة الإسلام من أول الدراسة حتى الآن أمور محفوفة بقدر من الحذر من قِبَل أوروبا نفسها ؛ لأن كل وسيلة من الوسائل التى سبق ذكرها قد تتعرض لسوء الظن والافتضاح أمام الوعى الفردى أو الجَماعى . فمثلاً عندما تبرع « روكفلر » بعشرة ملايين دولار أمريكى لإنشاء معهد للآثار فى مصر وشرط لتنفيذ المشروع شروطاً معيِّنة ، فطن المصريون إلى الهدف الذى يريده ذلك الصهيونى . ورفضوا شرطه القاضى باستمرار الإدارة الأجنبية للمعهد لمدة ثلاث وثلاثين سنة . وترتب على هذا - رجوع المليونير « روكفلر » الأمريكى الصهيونى - عن فكرته تلك وسحب العرض الذى تقدَّم به .

وما يقال عن مشروع « روكفلر » يقال عن كل وسيلة تقدَّم ذكرها من وسائل مواجهة أوروبا للإسلام ، لذلك فإن أوروبا من عهد الاحتلال البريطانى لمصر فطنت إلى وسيلة أخرى جامعة معسولة ، قد يُخفى عسلها ما فيها من سموم قاتلة . تلك الوسيلة الجامعة المعسولة هى التى أشرنا إليها فى العنوان « تطوير الإسلام » وقد نجحت هذه الوسيلة فى بعض الأقطار الإسلامية من قبل - كالهند وتركيا - وهذا النجاح شجع أوروبا على المضى فى ترويج هذه الوسيلة « تطوير الإسلام » وبذلت فى سبيلها جهوداً مكثفة حتى اجتاحت كل البلاد الإسلامية - الآن - إلا النادر منها .

ومن فضول القول أن نشير إلى أن أوروبا استخدمت هذه الوسيلة فى جانب

شديد الخطر من جوانب الإسلام ، ألا وهو الجانب التشريعى دون الجانب الذى يتصل بالعقيدة ، أو الجانب الذى يتصل بالعبادة ، وإن كان هذان الجانبان لم يسلما من مكائدها ودسائسها على ألسنة المبشِّرين والمستشرقين ، وما خطته أقلامهم ، وأعود فأذكِّر القارىء الكريم بأن أعمال المبشِّرين والمستشرقين بلغت فى مائة وخمسين سنة : ستين ألف مجلد ، كلها تتحدث عن الشرق الإسلامى . وأن هذه الإحصائية مضى عليها حتى الآن أكثر من نصف قرن من الزمان ، فيا تُرى ما العدد الذى أضيف إلى تلك الإحصائية حتى الآن ؟ العلم للّه وحده .

أجل .. إن تطوير الإسلام وإعادة تفسيره بما يناسب الحياة المعاصرة هى الوسيلة الجامعة التى اهتدت إليها أوروبا ، ودعا إليها ممثلوها فى البلاد الإسلامية من رجال أوروبا أنفسهم ، مثل : اللورد كرومر ، واللورد لويد ، وجب ، وسميث ، ولهج بها ممثلو أوروبا فى المؤتمرات العالمية المشتركة ، ثم تبناها عملاؤهم من العرب مثل ناصيف اليازجى ونصارى الشام ، ومن المسلمين ، مثل جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، ولطفى السيد ، وطه حسين ، وقاسم أمين ، وعلى عبد الرازق ، ثم انساق فى أعقاب هؤلاء جميعاً - وما يزالون ينساقون - جماعة آخرون ملأوا السهل والوعر ، متحدثين فى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ، وكاتبين فى الصحف والمجلات ، ومحاضرين فى النوادى والتجمعات ومؤلفين كتباً ودوريات .

إن هذه البدعة - « تطوير الإسلام وإعادة تفسيره » - قامت مقام الجيوش فى غزو بلاد الإسلام . وانتهى دور أوروبا الآن فى الترويج لها ، بعد أن صنعت لها عملاء فى كل بلد إسلامى يحملون لواءها وينصرونها فى كل محفل وناد . ولم يكن هذا هو النجاح الوحيد لأوروبا فى هذا المجال - وأعنى نجاحها فى صنع العملاء - وإنما هى قد حققت نجاحاً أبعد مدى ، وأبقى أثراً من صنع العملاء ، ألا وهو صعود الفكرة نفسها إلى مجال التطبيق العملى فى نظم الحكم فى البلاد الإسلامية - إلا ما عصم اللّه - فتلك النظم قد طبقت الفكر العلمانى بدل شريعة اللّه . والذى يهم أوروبا الآن بعد هذه « النجاحات » هو

المحافظة عليها وضمان استمرارها أمام الصحوة الإسلامية المعاصرة ، التى تهدد أوروبا شرقاً وغرباً على حد سواء .

* *

• كيف روَّجت أوروبا لهذه الفكرة :

كان أول مَن اهتدى إلى فكرة « تطوير الإسلام وإعادة تفسيره » هو اللورد كرومر ، ذلك الرجل الداهية الذى عاش فى مصر أكثر من ربع قرن ، ولمس عن قُرب الأسباب التى جعلت المسلم لا يثق فى أوروبا ولا فى فكرها . وكان الشغل الشاغل لكرومر هو الاهتداء إلى وسيلة يمد من خلالها جسوراً من الثقة ، والتفاهم المتبادل بين المسلمين والأوروبيين ، وبخاصة بريطانيا التى ينتمى كرومر إليها ويمثل سياستها فى مصر . وقد جرَّب كرومر العديد من وسائل التقريب ، وظهر له ضآلة جدواها . ومن ثَمَّ هداه طول تفكيره إلى أن الذى يقف عقبة فى طريق ذلك التفاهم هو الإسلام ، فما دام المسلمون يتمسكون بالإسلام كما تناقلته الأجيال عبر التاريخ ، ويحترمون ماضيهم القديم ، ويحيطون الإسلام بهالة من القداسة تحول دون أى مساس به ، ويربطون حاضرهم ومستقبلهم بما كان عليه الإسلام فى عصر النبوة والخلفاء الراشدين ، هذه العوامل لا يُرجَى معها أي تقدم فى العلاقات بين الشرق الإسلامى والغرب الصليبى . إذن لا بد من تحطيم الإسلام ، ولن يُحطَم الإسلام إلا بتهيئة العقول لهذا التحطيم . وهذا لا يتأتى إلا بفكرة تطوير الإسلام وإعادة تفسيره .. ووضع « جب » وآخرون كتاباً ضمنوه تمهيدات لهذه الفكرة ، ذلك الكتاب هو : « إلى أين يتجه الإسلام » ؟!

تم خطا أوروبى آخر خطوة أخرى على نفس النهج ، وزعم أن الإسلام فى العصر الحديث يعيش فى ورطة . وسمى هذا الزعم بـ « أزمة الإسلام » وادعى أن هذه الأزمة ناشئة عن جمود الإسلام من جهة ، وتطور أساليب الحياة من جهة أخرى . وأن المسلمين أمام هذه الأزمة بين اختيارين :

أحدهما : أن يظلوا محتفظين بالإسلام على ما هو عليه من أشكال قديمة موروثة . وفى هذه الحالة يظل الإسلام - على حد زعمه - معزولاً عن الحياة ؟!

والاتجاه الآخر : أن يسمح المسلمون بتعديل إسلامهم القديم ويخلعوا ثوب القداسة عنه ، ويوائموا بينه وبين تطورات الحياة . فيُقبلوا على تطوير الإسلام والنظر فيه من جديد ، ويعيدوا تفسيره . وفى هذه الحالة ينسجم الإسلام مع الحياة ، ويزول التنافر الحاد بين الإسلام والحياة ؟!

جاءت هذه المزاعم فى كتاب : « الإسلام فى العصر الحديث » لمؤلفه : « ولفرد كانتويل سميث » . مدير معهد الدراسات الإسلامية ، وأستاذ الدين المقارن فى جامعة ماكجيل بكندا . وهو تلميذ لـ « جب » الذى أشرف على رسالته للدكتوراة وهى الكتاب المذكور آنفاً . وقد منحته الدكتوراة جامعة « برنستون » الأمريكية عام ١٩٤٨ وموضوع الرسالة هو « مجلة الأزهر .. عرض ونقد » .

● نماذج من الكتاب :

* يدّعى المؤلف أن الإسلام شئ . وتطبيق المسلمين له شئ آخر ؟!

فالإسلام هو الحقيقة الإلهية المثلى . وتطبيق المسلمين له ليس هو الإسلام بل هو تاريخ الإسلام ؟!

وأن الإسلام شئ ثابت . أما تاريخه ، وهو التطبيق العملى ، فشئ متغير يخضع للظروف الطارئة والزمان والمكان (؟!) فأهل كل زمان يعملون به وفق زمانهم ، وكذلك أهل كل مكان .

وعلى هذه الاعتبارات قسّم المؤلف الإسلام ثلاثة أقسام باعتبار الزمان ، وأقساماً عدة باعتبار المكان فى العصر الحالى .

*

● أقسامه باعتبار الزمان :

قسَّم المؤلف الإسلام حسب التأثير الزمانى على الوجه الآتى :

* إسلام قديم ويبدأ من عصر النبوة وينتهى بسقوط بغداد على أيدى التتار عام ٦٥٦هـ (؟!) .

* إسلام وسيط ، ويمثله العصر التركى إبَّان قيام دولة الخلافة وينتهى بانتصار الكماليين وسقوط الخلافة العثمانية (؟!) .

* إسلام حديث ، ويبدأ منذ اتصال الشرق الإسلامى بأوروبا وتصدير أوروبا حضارتها إليه (؟!) .

*

● أقسامه باعتبار المكان :

أما باعتبار المكان فيكاد المؤلف أن يجعل من كل بلد إسلامى مناخاً لإسلام خاص به . فهو فى (صفحات : ٥١ - ١٩٣ - ١٩٤ - ٢٨٦) يتحدث عن إسلام تركى ، وإسلام هندى ، وإسلام باكستانى . ويشيد بعبارة قالها أحد الأتراك الكماليين ، وهى :

« نريد أن نبنى إسلاماً تركياً ملكاً لنا ، وجزءاً من مجتمعنا الجديد على نحو الكنيسة الانجليكانية التى هى مسيحية على نمط إنجليزى(؟!) .

فالانجليكانية ليست إيطالية ولا روسية ، ولكن أحداً لا يستطيع اتهامها بأنها ليست مسيحية . فلماذا لا يكون لنا إسلامنا الخاص بنا » (ص ١٩٣) (؟!) .

ويقول المؤلف عن مسلمى الهند : « إن مسلمى الهند يكتبون الآن فصلاً ذا أهمية أساسية فى تاريخ الإسلام الحالى ؛ لأنهم يقومون بمحاولة يتولون فيها دور القيادة والإنشاء لحياة جديدة (؟) فالإسلام الذى سيبقى فى الهند سوف

يكون إسلامهم الخاص (؟) وسوف يكون شكله مختلفاً عن شكل الدين الذى يطوِّره مسلمو باكستان اليوم » (ص ٢٥٨) .

* *

● العمل بالإسلام شخصى لا جَماعى :

بعد أن قرر المؤلف أن الإسلام نموذج ثابت محدد ، زعم أن العمل به أمر شخصى قد يتعدد بتعدد الأفراد ، وليس منهجاً ثابتاً كالإسلام نفسه تلزم به الجماعات فى كل زمان ومكان . ومن الخطأ - عنده - أن يسمى العمل بالإسلام إسلاماً . بل هو تاريخ للإسلام . ومن أخص خصائص التاريخ - كما نعلم - التجدد والاختلاف .. يقول المؤلف :

« إن الإسلام كما بدا فى التاريخ : هو من صنع المسلمين (؟!) أما الإسلام المنزَّل من عند اللّه فليس هو ممارسة تلك الأعمال والعقائد والأشكال التى يسميها الناس إسلاماً ؟! ولكنه نداء شخصى حى موجه إلى الأفراد يدعوهم إلى أن يعيشوا الحياة التى تهيؤها لهم ظروفهم (؟!) مراقبين اللّه ، وأن يعاملوا رفاقهم من البَشر فى ظل عدالته » (ص ٣٠٨) (؟!) .

لم ينس المؤلف ، وهو بصدد تفتيت الإسلام وتحطيمه أن يضمِّن تطوير الإسلام المرتقب مبدءاً يفتح المجال واسعاً لأعداء الإسلام وهو وجوب معاملة البَشر جميعاً - والمقصود أعداء الإسلام - معاملة حسنة فى ظل عدالة الإسلام - المطوَّر - نفسه ؟!

* *

● الثناء على التصوف :

من الأمور الدخيلة على التصوف الإسلامى : تلك النزعة التى تُفرِّغ الإسلام من كل محتوى . وتحصر الإسلام فى الزهد والعبادة فحسب ، ولا تجعل له أى دور فى تنظيم شئون الحياة سلمياً وحربياً واقتصادياً وسياسياً وجهادياً . كما

تدعو تلك النزعة إلى اعتبار الدين واحداً فلا إسلام ولا يهودية ولا نصرانية ، بل ولا بوذية ولا مزدكية . لذلك ترى المؤلف يثنى على التصوف ؛ لأنه قام - أى التصوف - بالتطوير المطلوب للإسلام قبل أن تدعو أوروبا إلى ذلك التطوير . (انظر الصفحات : ٩- ٣٤ - ٣٥ - ٣٧ - ١٩٩ من الكتاب المذكور) .

* *

● العلمانية والإسلام :

ويعدِّد المؤلف المذاهب المعاصرة التى ابتكرتها الصهيونية لتفتيت وحدة العالم ، ولوِّح بها الاستعمار للنَيْل من قداسة الإسلام عند المسلمين ، وبخاصة العلمانية التى يوليها المؤلف عناية خاصة ، ويُظهر سعادته لأن العلمانية تسربت إلى بلاد الإسلام وأنها تشق طريقها فيه فى تقدم مستمر ، وأنه يجب فرضها على الواقع الإسلامى بقوة السلاح أو بضغط سياسى (من أوروبا طبعاً) إذا اقتضى الأمر ، ولكن المؤلف يعوِّل على إقناع المسلمين بها أكثر من تعويله على قوة السلاح أو الضغط السياسى . وإليك كلامه بالحرف :

« إن العلمانية تشق طريقها إلى العالم الإسلامى فى تقدم مستمر ، وإن من الممكن تطبيقها بقوة السلاح (؟!) أو تحت ضغط سياسى ، ولكن من المهم أن تستند فى تقدمها على سماحة الدين بها وإباحته لها ؟! وإلا انعدم السلام (؟!) والانسجام فى داخل كل من الفرد والجماعة ، وأصبح من الممكن أن تنتهى العلمانية بكارثة » (ص ٣٠١) .

ويؤكد فى (ص ٣٠٣) أن تطوير الإسلام على أساس داخلى أبقى أثراً من أن يُطوَّر تطويراً مباشراً من أوروبا .

وحاول المؤلف أن يشوِّه ماضى الإسلام فى نظر المسلمين مرات ويصف احترامهم لسُنَّة النبى ﷺ وخلفائه الراشدين بأنه وَهْمٌ يجب التخلص منه ، ويدَّعى أن الحروب الأهلية التى نشبت في القرن الأول بين الإمام على ومعاوية قد قضت على نظام النبى ونظام خليفتيه أبى بكر وعمر رضى اللّه عنهما .

ويشيد بالتجربة التركية فى عهد الرجل الصنم « أتاتورك » ويرشحها لتكون نموذجاً يحتذى به جميع المسلمين ، كما يلوم كل اللوم الذين ينتقدون ما فعله الكماليون بالإسلام فى تركيا ؟!

* *

● إجاعة المسلمين :

ويتحدث المؤلف عن عامل مهم من العوامل التى تجعل المسلمين يقبلون ما تريده أوروبا بالإسلام ، وهو إجاعة المسلمين وجعلهم دائماً في حاجة إلى عطف الغرب وإحساناته ، ويضرب مثلاً بالباكستان فيقول :

« إن أساليب الحياة العصرية الغربية ماضية فى الانتشار فى إطراد ثابت لا يتغير ولا يتوقف ، متخللة كل مناطق العالَم ، ومن بينها المناطق الإسلامية ، وذلك بسبب اختلاط أهله بالعالَم الغربى فى شتّى نواحى حياتهم . ولم يعد هناك وجود لاستقلال كامل طالما أن حصول الفلاح الباكستانى على طعامه مثلاً يتوقف على قرار من واشنطون » (ص ٢٩٨) (؟!) .

ووسائل الضغط التى تمارسها أوروبا الآن لم تقف عند حد الإجاعة التى أشار إليها « ويلفرد سميث » . بل هناك وسائل أخرى منها حماية النظم الحاكمة ، والإمداد بالسلاح وتمويل المشروعات ، وهى تستغل كل تلك الوسائل فى تنفيذ مآربها ، وبخاصة فرض البدائل عن الإسلام .

* وكان للبعثات العلمية إلى أوروبا دور فعّال فى تطوير الإسلام ، وقد مرَّ بنا - قريباً - أثر « رفاعة الطهطاوى » فى التمهيد لتطوير الإسلام ، وفى نفس الوقت الذى كان يؤدى فيه رفاعة الطهطاوى دوره المرسوم له فى التمهيد لتطوير الإسلام كان « خير الدين التونسى » يؤدى نفس الدور فى شمال غرب إفريقيا بعد عودته من الابتعاث إلى الخارج . روّج « خير الدين » للحضارة الغربية وطالب بما يدخل تحت فكرة « تطوير الإسلام وإعادة تفسيره » ، وافتتن إلى أبعد مدى بما شاع فى فرنسا من حريات لا حدود لها .

وكذلك كان للمؤتمرات المشتركة ، دور فى هذا التمهيد ، وقد ضربنا من قبل مثلاً بالمؤتمرين اللذين عُقِدا فى جامعة برنستون الأمريكية (عامى ١٩٤٨ - ١٩٥٣) . وما دار فيهما من وقائع ، فليرجع إليهما مَن شاء من القراء .

ونضيف إليهما - هنا - مؤتمراً ثالثاً هو مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامى الذى عُقد بباريس عام ١٩٥١ . وكان الموضوع المهم فيه هو التعامل بالربا . وقدَّم « معروف الدواليبى » بحثاً ابتدع فيه تقسيم القروض قسمين :

١ - القروض الاستهلاكية التى يضطر إليها الشخص للإنفاق على شئون حياته ، ويرى أن تعاطى فوائد على هذه القروض يُعَد رباً .

٢ - القروض الإنتاجية ، وهى التى يقترضها الشخص لتمويل مشروع اقتصادى كتأسيس شركة ، أو مصنع . ويرى أن هذا النوع من القروض لا يُعَد ما يؤخذ عليه من الفوائد رباً محرَّماً . وقد مهد الدواليبى - هنا - لمشروعية الفوائد التى تتقاضاها البنوك من عملائها . وهذا كما ترى خطوة جريئة فى تطوير الإسلام وإعادة تفسيره ؟!

* *

● مدرسة القضاء الشرعى :

ويدخل فى إطار التمهيد الأوروبى لتطوير الإسلام وإعادة تفسيره مدرسة القضاء الشرعى التى أنشأها « اللورد كرومر » لتخريج قضاة مسلمين عن غير طريق الأزهر ، فقد يئس « كرومر » والإنجليز من إحداث رِدَّة فى الأزهر تجعله يتجاوب مع أهداف الاستعمار ويسمح بإدخال تعديلات على مبادئ الإسلام وقيمه ، وطالما شكا الإنجليز وممثلوهم فى مصر من صلابة الأزهر ، ووقوفه عقبة كأداء فى طريق الزحف الحضارى الغربى على مصر أولاً وعلى بلاد الشرق ثانياً ، وذلك فى جبهتين قويتين :

إحداهما : التعليم الذى أراد الإنجليز إخضاعه لسياستهم داخل أروقة الأزهر فتأبّى عليهم الأزهر فى عزة وشموخ .

والآخر : التشريع الإسلامى ، وهو المقصود بالتطوير الذى نتحدث عنه .

ومدرسة القضاء الشرعى التى أنشأها اللورد كرومر شبيهة فى بواعثها وأهدافها بكلية ڤيكتوريا التى أنشأها كرومر لتخريج جيل رؤوسه مصرية ، وعقوله بريطانية أوروبية يتولى قيادة البلاد ، وينفذ خطط حكومة صاحبة الجلالة ، ولم يكن إنشاء كلية ڤيكتوريا كافياً لتحقيق مطامع الإنجليز فى مصر ، فخريجوها أشبه ما يكونون بالملاعق والشوك التى تتناول بها بريطانيا الطعام ، ولكن أين هو الطعام الذى تُستعمل فيه هذه الأدوات ما دام الأزهر لا يقدِّم إلا العلقم والصاب فى نظر الإنجليز ؟ من هنا كان الاتجاه إلى إنشاء « فرن » أو « مخبز » يطهو الطعام المطلوب بعيداً عن الأزهر . ذلك « الفرن » هو « مدرسة القضاء الشرعى » التى مهمتها إفراز قوانين مطوَّرة معدَّلة تكتمل بها عملية المسخ والتخريب . وكان كرومر سعيداً جداً بإنجازاته هذه فى مصر . فقد كتب فى تقريره لعام ١٩٠٥ يقول :

« إنه حصل من البارون كاليه حاكم البوسنة العام على برامج الدراسة فى المملكة التى أنشأتها حكومة النمسا فى سراجيفو لتخريج قضاة لطائفة المسلمين ، ووضعها بين يدى لجنة يرأسها الشيخ محمد عبده بقصد وضع خطة مشابهة تلائم وضع مصر وظروفها .. ومات الشيخ محمد عبده ولم يتم إنشاء المدرسة إلى أن جاء سعد زغلول - تلميذ الشيخ محمد عبده - فوضع الخطة موضع التنفيذ عام ١٩٠٦ حين صار - وبسعى من الإنجليز - وزيراً للمعارف المصرية » .

* *

• أوروبا طرف فى التطوير :

تطوير الإسلام الذى نتحدث عنه ، ليس معناه - فى نظر أوروبا - أن يقوم المسلمون أنفسهم بهذا التطوير ، بل هى حريصة كل الحرص على أن تراقبه وتوجهه الوجهة التى تحقق الغرض منها لأوروبا نفسها . وقد أفصح عن هذه الخطة كثير من رجالهم . فهذا « ولفرد سميث » يقول فى مقدمة كتابه « الإسلام فى التاريخ الحديث » الذى نشر عام ١٩٥٧ :

« إن الإسلام يجتاز الآن تحولاً وتغيراً خطيراً ، وإن دراسة هذا التطور تعنى المسلمين : لكى يشتركوا فى تطور حياتهم مشاركة واعية ، وتعنى الأجانب (أوروبا) لكى يراقبوا هذا التطوير ، ويعرفوا مكانهم فيه .. » .

ويمضى سميث فيفصح عن معان جد خطيرة إذ يقول :

« إن الإسلام كان عاملاً أساسياً وسبباً مهماً من أسباب وجود الهوة التى تفصل بين الغرب وبين العرب .. ولقد أصبح من الحقائق الجديدة فى مدنيتنا العصرية أن من الواجب سد هذه الثغرات ، ببناء قنطرة فوق مثل هذه الهوة .. » .

فأنت ترى من هذا الكلام أن تطوير الإسلام أو « تليينه » كان الشغل الشاغل لمفكرى الغرب فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين .

فى هذه الفترة اتجهت أوروبا إلى الوسائل العلمية والمعرفية فى تحقيق مآربها ، وأعرضت عن العمل العسكرى المسلح الذى يوغر صدور المسلمين نحوها . ومن البديه أن أوروبا لم ترد بتطوير الإسلام مصلحة المسلمين كما كانوا يعلنون أحياناً ، ولكنها أرادت أن تنزع أسباب القوة منهم ليسهل عليها التهام العالَم الإسلام ، لضمان القضاء على كل المخاوف التى تساورها من جرّاء الإسلام . وما ننقله لك بعد قليل من كلام « جب » يضع أمامك الحقيقة سافرة مجلوة . يقول « جب » فى كتابه « إلى أين يتجه الإسلام » :

« يجب أن نلاحظ أن موضع البحث ليس هو : هل تبقى الروابط القديمة التى كوّنت هذه الوحدة - يعنى وحدة المسلمين - ثابتة دون أن تتغير أو تتطور ؟ فقد تتطور مظاهر هذه الروابط ، وقد يصبح مفهوم هذه الوحدة مغايراً لمفهومها فى العصور الوسطى . فكل ذلك ثانوى ليس بذى خطر . ولكن المهم هو : هل ستكون هناك ميول مشتركة بين الشعوب الإسلامية ؟ وهل سيقوم إحساس بوحدة الهدف والعمل ؟ أم أن الآراء الحديثة ، وحاجات الحياة الجديدة ستنجح فى آخر الأمر فى تشتيت المجتمع الإسلامى ، وتحطيم وجوده » (؟!) .

أجل : إن الهدف من تطوير الإسلام هو تشتيت المسلمين وتحطيم المجتمع القوى الذى أقامه الإسلام ، لا فى مصر وحدها ، ولكن فى جميع بلاد الإسلام .

* *

● الرأى العام والصحافة :

وقد فطن دعاة الغرب إلى أن تأثير التعليم وحده غير كاف فى تحقيق مقاصد أوروبا ، فلتكن مدرسة القضاء أو لا تكون ، ولتكن كلية ڤيكتوريا أو لا تكون . وإنما تكمل الخطة بخلق رأى عام يتقبل البدائل التى تطرحها أوروبا مكان الإسلام . إذ لا جدوى من كل الوسائل مع وجود رأى عام واع مستنير . قد تزول مع وجوده كل الجهود المبذولة لتطوير الإسلام . ومن هنا اهتدوا إلى الصحافة باعتبارها المكوّن الأول للرأى العام ، والعامل المستمر على تغذيته وحمايته ، ولأن تأثير الصحافة فى الاتجاهات السياسية والأجهزة الإدارية لا يخفى ، وإليك ما قال « جب » فى هذا الصدد :

« والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفى ، فليست هى فى حقيقة الأمر إلا الخطوة الأولى فى الطريق ؛ لا تغنى شيئاً فى قيادة الاتجاهات السياسية والإدارية . وللوصول إلى هذا التطور الأبعد - الذى بدونه تظل

الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية - يجب أن لا ينحصر الأمر فى الاعتماد على التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية [1] . بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفاً إلى خلق رأى عام . والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة » (؟!) .

ويقارن « جب » بين الصحافة التركية والصحافة المصرية فى ذلك العهد فيقول عن الصحافة التركية :

« إن الصحافة التركية وطنية لا دينية (؟) وهى لا تجرؤ أن تكون دينية لأنها مراقَبة من الحكومة مراقبة شديدة » (؟!)

ويقول عن الصحافة المصرية : « أما الصحافة المصرية .. فهى تتطور فى بطء ، وتعرض طائفة منوعة من الآراء الجديدة ، وهى على كل حال لا دينية فى اتجاهها » (؟!) .

ثم يشيد « جب » بأن مديرى الصحف المصرية من التقدميين ولذلك وجدت الآراء والمذاهب الغربية ، والحضارة الغربية متنفساً لها فى الصحف المصرية .

* * *

● نص جامع قبل الانتقال :

وقبل أن ننتقل إلى « ممارسة التطوير بعد رحيل الاستعمار » نضع بين يدى القارىء نصاً جامعاً لـ « جب » يصف فيه الآثار التى أسفرت عنها جهود أوروبا فى مصر من خلال مواجهتها للإسلام ، وكيف كان الرجل بالغ السعادة وهو يقول ما قال ، وكيف كان ظاهر الشماتة للإسلام الذى زحزحوه عن حياة المسلمين فى مصر . اسمع إليه وتدبر ما قال فى وعى :

---

(١) كتب جب هذا الكلام وليس فى مصر جامعة غير جامعة الأزهر ، التى ينس الاستعمار من السيطرة عليها .

بعد أن أشاد « جب » بالجهود التى بذلوها فى مجال التعليم والثقافة والصحافة والرأى العام . وأن تلك الجهود تركت لدى المسلمين - من غير وعى منهم - آثاراً جعلتهم يبدون فى مظهرهم العام لا دينيين إلى حدٍ بعيد . قال :

« وذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالَم الإسلامى على حضارته من آثار .. الواقع أن الإسلام بوصفه عقيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه ، ولكن الإسلام بوصفه قوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد كل مكانته (؟!) فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه ، وهى فى كثير من الأحيان تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضاً صريحاً ، ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك إلى المجتمع الإسلامى فى قوة وعزم .

فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم من عامة الناس ، وللفلاح اتجاه سياسى ، ولم يكن له أدب إلا الأدب الدينى ، ولم تكن له أعياد إلا ما جاء به الدين ، ولم يكن ينظر إلى العالَم الخارجى إلا بمنظار الدين ، كان الدين هو كل شئ بالنسبة له (؟!) .

أما الآن ، فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود (؟!) وتعددت ألوان نشاطه الذى لم يعد مرتبطاً بالدين (؟!) فقد أصبحت له ميوله السياسية ، وهو يقرأ - أو يقرأ له غيره - مقالات فى مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين . بل إن وجهة نظر الدين فيها لا تناقَش على الإطلاق (؟!)

وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد هى الفيصل فيما يعرض له من مشاكل (؟!) ولكنه مرتبط فى المجتمع الذى يحيا فيه بقوانين مدنية لا يعرف مصادرها ولا أصولها [1] (؟!) ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة عن القرآن ؟!

---

(١) يريد « جب » من « القوانين المدنية » التشريعات الوضعية التى جئ بها بديلاً عن الإسلام .

وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لإمداده فى حاجاته الروحية ، فضلاً عن حاجاته الاجتماعية والأساسية ، بينما أصبحت مصالحة المدنية ، وحاجاته الدنيوية هى أكثر ما يسترعى انتباهه . وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت دوائر نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً ، حتى انحصرت فى طقوس محدودة ، وقد تم معظم ذلك التطور تدريجياً عن غير وعى ولا انتباه .

.. وقد مضى هذا التطور الآن - ١٩٣٢ - إلى أبعد مدى ؟! ولم يعد من الممكن الرجوع فيه .. أو يُصد هذا التيار ؟! أو يُعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة التامة التى لا تناقش على الحياة السياسية والاجتماعية » .

* *

● تقويم ما حدث فى العالَم الإسلامى :

يطرح « جب » سؤالاً ثم يجيب عليه مقوِّماً ما حدث فى العالَم الإسلامى أمام فكرة تطوير الإسلام . أما السؤال فهو : إلى أى مدى أصبح العالَم الإسلامى غربياً ؟ أجاب « جب » على هذا السؤال فقال :

« إن تركيا قد انقلبت إلى بلد غربى كأعنف ما يكون الانقلاب . وأما شبه جزيرة العرب فإن النفوذ الغربى لم يستطع أن يضع قدمه فيها (عام ١٩٣٢) وفى شمال إفريقيا بدأت حركة التغريب ، وأثرها فى تونس أبرز من غيرها .

أما مصر فهى تتطور فى هدوء بعيداً عن العنف ، ولكنها تتقدم تقدماً واضحاً نحو التطوير . وأما العراق وسوريا فهما يتبعان خطوات مصر ، بينما تتبع إيران خطوات تركيا » .

وبعد أن تحدَّث عن البلاد الإسلامية بلداً بلداً : الهند ، ومسلمى روسيا وأندونيسيا وإفريقيا ، وأن كل تطور حدث فى البلاد الإسلامية كان يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء فى العالَم الإسلامى ، وعلى الشباب منهم خاصة ، قال بالحرف الواحد :

« ومن ثَمَّ نستطيع أن نقول - حسب سير الأمور الآن - : إن العالم الإسلامى سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينياً فى كل مظاهر حياته ؟! ما لم يحدث فى الأمور عوامل ليست فى الحسبان فتغير اتجاه التيار » (؟!) .

أرأيت عزيزى القارىء إلى أى مدى تآمرت أوروبا على الإسلام ، وكيف أحكمت خطط مواجهتها له فى كل مكان ؟! وإلى أى مدى بلغ الحقد عندها على الإسلام ؟!

هذه حقائق يجب أن تأخذ مكانها فى اهتمامات الشباب الغيور على دينه . وأن يبطل مفعول كل وسيلة وضعها الأعداء فى مواجهة الإسلام . وهذا - مع وجود القيادات الحالية ، ونشاط الوسائل الهدامة - لن يتم بين يوم وليلة . وإنما يحتاج إلى صبر وعزم وحكمة . وكل آت قريب .

* * *